المضمرات النسقية بين التأريخي والمتخيل في رواية "2084 حكاية العربي الأخير" لواسيني الأعرج

The implicit pattern between the Historical and the Imaginary in the Novel "2084: The Story of the Last Arab" by Wassini Al-Araj

د.بلحر ياقوت*

جامعة محمد بن احمد وهران2،

(الجزائر)

yakout_0804@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2023/01/02

القبول:2023/05/06 النشر:2023/05/31

ملخص:

يمثل النقد الثقافي اتجاها جديدا يهدف إلى الكشف عن الأنساق المضمرة، بغض النظر عن بلاغة النص الأدبي؛ ذلك أنه يولي اهتماما بالغا بالأفكار والمعاني، حيث يهتم بالأنساق الثقافية المضمرة خلف البناء اللغوي، مستثمرا آلياته الإجرائية. فمعنى النص في النقد الثقافي لا يكمن في اللغة بل في الأنساق المتوارية خلفها. وعليه، يأتي هذا البحث للكشف عن النسق المضمر في رواية."2084 حكاية العربي الأخير" لواسيني الأعرج –التي تعدّ خطابا لغويا محملا بأنساق مضمرة مستترة وراء اللغوي والجمالي– مستعينا في ذلك بمنطلقات النقد الثقافي الذي يسمح بتتبع مسارات السرد في النص الروائي. وبناء على ذلك، تناولنا بداية مفاهيم أساسية حول النسق والنسق الثقافي المضمر، ثم تطرقنا إلى التأريخي والمتخيل، ومن تم إلى المضمرات النسقية التي رمى إليها الروائي بنقله للتاريخ إلى آفاق التخييل في إطار صراع أخلاقي كان بطله العربي الأخير"آدم". لننتهي إلى خاتمة نجمل فيها حوصلة لما جاء في البحث كله.

الكلمات المفتاحية: نقد ثقافي؛ نسق مضمر؛ رواية؛ عربي أخير؛ واسيني؛ تأريخي.

Abstract :

Cultural criticism represents a new trend that aims to reveal hidden patterns, regardless of the eloquence of the literary text. The meaning of the text in cultural criticism does not lie in the language, but the hidden patterns behind it. Accordingly, this research comes to reveal the implicit pattern in the novel “2084 The Story of the Last Arab”, where we initially dealt with basic concepts about the implicit cultural pattern and pattern, and then we touched on the historical and the imaginary, and from that to the systemic impliments that the novelist aimed at by transferring history to horizons Imagination in the context of a moral conflict was the last Arab hero "Adam". Let us end with a conclusion in which we summarize a summary of what was mentioned in the entire research.

KeyWords: Cultural criticism; the implicit pattern; the last Arab; Wassini al-

Araj; the historical; the novel.

*د. بلحر ياقوت

المقدمة:

النقد الثقافي من أهم الاتجاهات والظواهر الأدبية المرافقة لما بعد الحداثة في مجالي الأدب والنقد. وهو نشاط فكري يتخذ من الثقافة على اختلاف أبعادها موضوعا لدرسه وبحثه، فهو نشاط يتفاعل مع المفاهيم والنظريات في قراءة الفنون والنصوص واستنطاقها ثقافيا. من أجل قراءة الأفكار والأنساق والاتجاهات بغية التعمق في الثقافة وفعلها. فالنقد الثقافي يبحث تحت ما هو جمالي، باستنطاق ما تضمره الأنساق التي يمررها الكاتب. وبذلك يكون النص وسيلة لفهم المكونات النسقية المضمرة في اللاوعي اللغوي والأدبي والجمالي. ومن تمّ يحتلّ النسق المضمر مكانة أساسية في الممارسات النقدية الثقافية

ومن أجل مقاربة هذه الأنساق المضمرة المتضمنة في نموذجنا الروائي، انطلقنا من الأسئلة التالية: كيف تجلت الأنساق المضمرة في الخطاب الروائي "2084 حكاية العربي الأخير"؟ وكيف استغل واسيني الأعرج التاريخ في تمرير مواقفه؟ وكيف جعل الروائي شخوصه التخييلية أداة يعبر بها عن قضاياه وايديولوجيته؟ سيما أن الروايات قادرة على تمرير رسائل مشفرة من شأنها أن تتيح خطابا للايديولوجية، ممّا جعل البحث في الأنساق المضمرة داخل النصوص الروائية من أولويات الدراسات النقدية عن طريق المقاربات الثقافية. فبتأويل الانساق المضمرة ودلالاتها الخفية، تتجلى الرسائل المشفرة.

وحيث إنّ واسيني الأعرج يسعى دائما إلى بسط أفكاره ورؤاه في نصوصه الروائية، فإننا نسعى في بحثنا هذا، إلى الاقتراب من انساق بعينها من نحو السلطة، الهوية، الإرهاب والآخرية، والتي تطرق اليها نموذجنا الروائي استنادا إلى التاريخ. فإلى أي مدى استثمرت الرواية التاريخ في حكي تفاصيلها؟ وماهي الحدود التي تتوخاها أثناء استنادها إلى المادة التاريخية؟

1- ضبط المفاهيم:

1-1. النسق:

يرى فرديناند دي سوسير أنّ النسق هو " تلك العناصر اللسانية التي تكتسب قيمتها بعلاقاتها فيما بينها، لا مستقلة عن بعضها" (حمودة، 1997، صفحة 184). فالعناصر اللسانية تكون في علاقة تجاور وانسجام وتماسك حتى تكتسب دلالتها في النص. أما المنظور الفلسفي فيرى " أنّ النسق هو مجموعة من العناصر المتداخلة تشكل كلا موحدا" (روزنتال و ي، 1974، صفحة 526) فالنسق الدلالي العام للنص هو ما يمثل مجموع الأنساق النصية مع الفكرية.

فالنسق "ذو طبيعة سردية، يتحرك في حبكة متقنة، ولذا هو خفي ومضمر وقادر على الاختفاء دائما، ويستخدم أقنعة كثيرة واهمها –كما ذكرنا– قناع الجمالية اللغوية " (الغذامي، 2012، صفحة 79)، ومن هنا تكتسب الأنساق الأدبية، على اختلاف أنواعها في النص الروائي، أهميتها في إنتاج الدلالة باعتبارها مضمونا إيديولوجيا.

ويطرح الغذامي مفهوم "النسق" كمفهوم مركزي في مشروعه النقدي على النحو الآتي (الغذامي و عبد النبي، نقد ثقافي أم نقد أدبي، 2004، صفحة 32):

- يتحدّد النسق عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد والوظيفة النسقية لا تحدث إلاّ في وضع محدد ومقيد، من خلال تعارض نسقان أو نظامان أحدهما ظاهر والآخر مضمر.
- النسق من حيث هو دلالة مضمرة فإنّ هذه الدلالة ليست مصنوعة من مؤلف ولكنها منكتبة ومنغرسة في الخطاب، مؤلفتها الثقافة.
- النسق ذو طبيعة سردية، يتحرك في حبكة متقنة، لذا فهو خفي مضمر وقادر على الاختفاء دائما، يستخدم أقنعة كثيرة.
- الأنساق الثقافية أنساق تاريخية أزلية راسخة ولها الغلبة دائما، وعلامتها هي اندفاع الجمهور إلى استهلاك المنتوج الثقافي المنطوي على هذا النوع من الأنساق.

ونخلص مما سبق إلى أنّ النسق من وجهة نظر النقد الثقافي، هو حالة ثقافية يقوم على التضاد، ويتضح من خلال الدلالة المتوارية في النص، والمبثوثة في اللاوعي الجمعي.

1-2. النسق المضمر:

يحتوي النسق المضمر أفكارا ودلالات فيها إيحاءات وإضمار، إذ إنّها "منكتبة ومنغرسة في الخطاب، ومؤلفتها الثقافة، ومستهلكوها جماهير اللغة من كتاب وقراء" (الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، 2012، صفحة 79). وقد حدّد الغذامي شروطا أربعة للنّسق المضمر، حيث "يتحدّد عبر وظيفته، وليس عبر وجوده المجرد، والوظيفة النسقية لا تحدث إلاّ في وضع محدّد ومقيّد، وهذا يكون حينما يتعارض نسقان أو نظامان من أنظمة الخطاب أحدهما ظاهر والآخر مضمر، ويكون المضمر ناقضا وناسخا للظاهر. ويكون ذلك في نص واحد، أو في ما هو في حكم النص الواحد، ويشترط في النص أن يكون جماليا، وأن يكون جماهيريا، ولسنا نقصد الجمالي حسب الشرط النقدي المؤسساتي، وإنما الجمالي هو ما اعتبرته الرعية الثقافية جميلا" (الغذامي، النقد الثقافي قراءة في الانساق الثقافية العربية، 2012، صفحة 77). فالنسق المضمر هو " كل دلالة نسقية مختبئة تحت غطاء الجمالي ومتوسلة بهذا الغطاء لتغرس ما هو جمالي في الثقافة" (الغذامي و عبد النبي، نقد ثقافي أم نقد أدبي، 2004، صفحة 33)، مما يعني أنّ جمالية اللغة هي الأداة الأساسية لإضمار الأنساق على اختلاف أنواعها في النص الأدبي مما يسمح بانفتاح النص وتعدد قراءاته.

ف " الأنساق المضمرة واحدة من الممارسات النقدية الحديثة التي حاولت استنطاق الخطاب الأدبي، وقراءته قراءة جديدة تستظهر مكنوناته وتحدّد مقاصده من أجل الوقوف على طبيعته وما مخبوء بين صفحات النص من معان جديدة بوعي من المبدع حينا، وعلى غفلة منه أحيانا أخرى" (محمد، 2021، صفحة 96). وعليه عمل النقد الثقافي على دراسة هذه الأنساق، واستنطاقها بغية استظهار مضمراتها، وفكّ شفراتها، واستخراج ما توارى بداخل النص من معاني أخرى لا يلتفت إليها كاتب النص. إذن؛ الأنساق المضمرة هي "ما اختفى بين ثنايا النص ولم تكشفه اللغة بشكل مباشر وتحتاج إلى الاستدلال لكشف محتوياته المضمرة وتحليلها" (محمد، 2021، صفحة 99)لإعادة قراءة النص الروائي قراءة جديدة وفقا لأنساقه المضمرة.

2- الخطاب الروائي بين التخييلي والتأريخي:

الخطاب الروائي هو " تمثيل للحياة والتجربة واكتساب المعرفة" (زيتوني، 2002، صفحة 99)، فهو بنية سردية تجمع العديد من الدلالات التي تمسّ المجتمع، الثقافة، التاريخ، والاتجاهات الفكرية. وهو بذلك، يطرح مختلف القضايا الاجتماعية والإنسانية، بلمسة جمالية فنية. معتمدا على آليات وتقنيات جعلته يتفرد عن غيره من الأجناس الأدبية، ولتفرع موضوعاته ظهر ما يسمى بالرواية البوليسية، الواقعية والتاريخية.

وإذا سلمنا أنّ مهمة الرواية ليست قول التاريخ أو إثباته ولا تتقصى الأحداث والوقائع، ألا يكون من العبث الخوض في تفاصيل التاريخ. ولسنا هنا بصدد الحديث عن الرواية التاريخية، إنّما عن الرواية التي استفادت من التاريخ كمادة لبناء ايديولوجيتها، لأنّنا في قناعتنا لا نعتبر الروائي مؤرخا، إنّما هو يستغلّ منجزه الروائي لاستعراض ثقافته التاريخية، او يركز على حدث تاريخي بعينه لتمرير ايديولوجيته عبره، لكن جماليا. فالنسق الأيديولوجي -هنا- مضمر تحت الإطار التاريخي.

و يبقى التاريخ مادّة حيّة يستلهم منها الروائيون مواضيع رواياتهم تبعا للتطورات الحاصلة، حيث أضاف الروائي للمادة التاريخية سمة جمالية أنتجت ثقافة بأكملها، فالثورة الجزائرية -مثلا- كانت " نقطة تحول أساسية في مسار التجربة الروائية الجزائرية، حيث أصبح الحديث عن الثورة والنهل منها اعتبارا ضروريا في الكتابة الروائية سواء بسرد بطولاتها أو بتشكيلها" (بلعلى، 2006، صفحة 52). فالروائي يعيد صياغة التاريخ أدبيا. ومن بين الروائيين الذين سحبوا التاريخ إلى المنجز الروائي، نجد واسيني الأعرج، الذي لم يكتف بالتاريخ الذي مضى، بل حاول استشراف ما هو آت من خلال منجزه "2084 حكاية العربي الأخير".

فالروائي ينهل من التاريخ ليصوغ منجزه السردي وفق مخياله الإبداعي، فيضفي عليه سمة جمالية، وهو ينتقي أحداثا بعينها،" فكل نص أدبي يتضمّن حتما عملية انتقاء من الأنساق الأدبية، الاجتماعية، التاريخية، والثقافية" (ابراهيم، 2011، صفحة 10)، باعتبار النص الأدبي منفتح بطبيعته، إذ يستحضر من الأنساق الأخرى ما يخدمه، ويجعله مركز اهتمام داخل النص، ومن ذلك ما قام به الروائي واسيني الأعرج في عدد من رواياته، ومنها نموذجنا "2084 حكاية العربي الأخير" التي التقت مع التاريخ في جوانب محددة استحضرها الروائي منها:

2-1. استحضار المكان:

كانت البداية مع "قلعة أميروبا" التي هي في الواقع " قلعة حلب". وهو مكان تاريخي استغله الروائي تخييليا دون أن يغفل عن ذكر عدد من التفاصيل التي توثّق كلامه، ومن ذلك " لم تكن قلعة أميروبا كما هي اليوم...كانت مأهولة بناس ينتمون إلى قبائل كنعانية، ... ليسوا هم من بنى قلعة أميروبا...يجمع المؤرخون أنهم استطاعوا أن يصدوا كل الهجمات التي حاولت الاستيلاء على القلعة، ومنهم المؤرخ الفرنسي جيروم كلافييه الذي أكّد ذلك من خلال أبحاثه...يؤكّد المؤرخ اليوناني تيت لايف على أن الامبراطور الروماني يوليان زارها في فترة حكمه ما بين 361 و363م ..." (الأعرج، 2016، صفحة 117). وقد استمر حديثه عن القلعة لأكثر من خمس صفحات، ذاكرا كل من تعاقب عليها من يونان ورومان وبيزنطيين ومسلمين، وأهم الصراعات والمعارك التي دارت حولها، كما أشار إلى بعض المؤرخين الذين كتبوا حولها من نحو المؤرخ الفرنسي "جيروم كلافييه" والمؤرخ اليوناني "تيت لايف".

واستحضر أيضا " سد مأرب" وأسماه في الرواية "سد مارابا" حيث يقول: " السد التاريخي مارابا الذي بناه السبئيون في القرن الثامن قبل الميلاد" (الأعرج، 2016، صفحة 94). ورغم أن الروائي لم يصرح بالتسمية الحقيقية للسد، لكنّه قدّم بعض التفاصيل التي تثبت أنّه سد مأرب التاريخي.

ولم يختر الروائي هذين المكانين عبثا، وإنما لدلالتهما التاريخية، إذ يضمر من وراء تفجيرهما الرغبة في إعدام التاريخ الذي يرمزان إليه.

2-2. استحضار أحداث تاريخية: وكثيرة هي الأحداث التاريخية التي استحضرها، وقد نذكر منها:

- حادثة بوتسدام 26 جويلية 1945: في قوله "تلعن إمبراطور الجنون كما تسميه هيروهيتو الذي سكن قلبه غرور نار الحروب ورفض إعلان بوتسدام" (الأعرج، 2016، صفحة 44).

- قنبلة هيروشيما وناغازاكي: في قوله" فجأة، فتحت أبوابها التحتية فنزلت القنبلة ليتل بوي على هيروشيما ...ويموت في ظلها في ثوان محدودة أكثر من 200 ألف إنسان...يوم 9 أوت...نزلت فات مان على سكان ناغازاكي مخلفة وراءها أكثر من 80 ألف ضحية...، لم يكن الأمر أكثر من مجرد انتقام لهزيمة 8 ديسمبر 1941في بيرل هيربول" (الأعرج، 2016، صفحة 187).

- تجارب كروسرودز 25 جويلية1944: في قوله" لسنا في تجارب كروسرودز يا عزيزي، قرن مضى" (الأعرج، 2016، صفحة 156) .

- مسيرة الموت التي نظمتها النازية: في قوله:" عندما شعرت النازية ببداية الهزيمة في جانفي 1945 اخترعت مسيرة الموت،...هذه المسيرات نظمت في عز الشتاء، تخللها أمر واضح بقتل كل من لا يستطيع السير" (الأعرج، 2016، صفحة 228).

- تجربة كاستل برافو 01مارس 1946: في قوله" أمامك تجربة كاستل برافو بسبب خطأ في حسابات صغيرة انتشر الغبار المشع على مسافة تجاوزت 160كلم، ومست جزر مارشال" (الأعرج، 2016، صفحة 156).

- تسونامي فوكوشيما 11مارس2011: في قوله" أنظر ماذا حدث في فوكوشيما في 11مارس2011؟ اليابان متقدمة في الوقاية من النووي...لكن لا أحد توقع تسونامي الذي فاجأهم وهزّ كل يقينهم" (الأعرج، 2016، صفحة 281).

وإن أتينا إلى ما يضمر هذا الاستحضار، نجد الأحداث المستحضرة متباعدة زمنيا ومكانيا، لكن لها صلة من الناحية السياسية والاجتماعية ومترابطة موضوعيا فالأحداث المستحضرة مرتبطة بالصراع الأزلي بين القوي والضعيف، وقد حاول السارد إثارتها ليزيح ما تضمره، إذ نلمس تدخلاته ومواقفه من مختلف الأحداث سواء بالسخرية أو المعارضة أو التأييد. وهو يؤكد كلّ مرة أنّ غرور شخص واحد أدى إلى خراب مدنيتين، وهلاك الملايين وتشوه الولادات وانتشار السرطانات، لكن هلاك البشر لم يكن دائما بسبب الاشعاع النووي أو أخطاء البشر، فحتى الطبيعة كان لها يد في هلاك الآلاف. فهل نحذر من البشر؟ أم من الطبيعة؟

2-3. استحضار شخصيات تاريخية:

يلجأ الروائيون إلى استحضار الشخصيات التاريخية لأنّها تشكل رموزا تحمل دلالات خفية تساهم في اتساع أفق وتوقعات القارئ. وفي روايتنا "2084 حكاية العربي الأخير" استحضر الروائي شخصيات غيرت مجرى التاريخ، لكنها لم تسهم صناعة الحدث الروائي، ونذكر منها:

- شارل دوفوكو: في قوله: "الأب شارل دوفوكو، رجل البرنس الأبيض والصليب الأحمر الذي عزل من العسكرية... يوم تم تعيينه هناك مع فيلقه في فبراير1881م....تعلم اللغة الطوارقية، وترجم الأناجيل إليها، وغضب من ممارسات الجيش الفرنسي ضد السكان الفقراء...رفض أن يترك الطوارق ويهرب، فقتل برصاصة طائشة، دفن في مقبرة مع بقية المسلمين من الطوارق" (الأعرج، 2016، صفحة 162). وذكر هذه الشخصية في سياق حديثه عن المنظمات التي تدافع عن القبائل المعرضة للزوال.
- جيوفاني دروغو: في قوله" كان جيوفاني دروغو ينتظر انتصاره الكبير، لكن المرض حرمه من هذه المتعة...كان مجبرا على أن يواجه وحيدا عدوا أبديا، الموت الذي كبر معه في الفراش" (الأعرج، 2016، صفحة 261).وذكر هذه الشخصية في سياق حديثه عن خطورة البقاء في القلعة وضرورة إخلائها خوفا من التنظيم.

كما استحضر عددا من الشخصيات العربية في سياق حديثه عن تاريخ القلعة ومن استوطنها، من نحو خالد بن الوليد، أبو عبيدة الجراح، سيف الدولة الحمداني، الظاهر الغازي بن صلاح الدين، جمال عبد الناصر، وعدد من الشخصيات التي اغتيلت بسبب انتمائها للمشاريع النووية. إذ يقول:" د.ساري رضوان رضا دكتور في الفيزياء النووية، كان يشتغل في مشروع سري في بلده، اغتيل في الجزائر العاصمة...في 16-03-2004 اغتيل الدكتور

غائب الهيتي أبرز علماء العراق..." (الأعرج، 2016، صفحة 329)، والقائمة لا تنتهي لجرائم أمريكا واغتيالها للعلماء العرب.

واستحضار هذه الشخصيات التاريخية لم يكن عشوائيا، إنّما جاء لتسليط الضوء على الظلم الذي لحق بها، وسكت عنه التاريخ. فـ" قام بإسقاطها على الواقع المعيش ليثبت أنّ التاريخ الإنساني هو تاريخ واحد مستمر عبر الأزمنة وأنّ مأساة الواقع المرير المليء بالظلم والاستبداد هو واقع قادم من بعيد متوقد فينا" (أوريدة، 2017، صفحة 225)، ذلك أنّ الفساد والاستبداد ليسوا حكرا على زمن من الأزمنة، بل هي ظواهر راسخة في المجتمعات على مر العصور.

ومهما يكن فإن التخييل يدمج في عوالمه المتخيلة أحداثا ذات صلة مع الواقع التاريخي، قصد تثمين أحداثه، أو ليمرر عبرها دلالات جديدة توجه فكر المتلقي إلى مقصدية الروائي في نصه.

3- الانساق المضمرة في الرواية:

بين أيدينا سرد استشرافي، يتنبأ بالموت القادم من الغرب، استغل فيه الروائي عددا من الأنساق المضمرة التي تحيل إلى حقيقة ما هو آت، فالمستقبل لم يعد موجودا بل إنّ سواده يلوح في الأفق، ومن بين الأنساق المضمرة التي ارتأينا أنها تسند هذا الاستشراف نجد نسق السلطة، نسق الهوية، نسق الإرهاب، نسق الآخرية، وقد وقفنا عند هذه الأربع على سبيل المثال لا الحصر:

3-1.نسق السلطة المضمر:

قدم الروائي في منجزه صورة عن الأحوال السياسية التي سيشهدها العالم سنة 2084، ممهّدا لها بوقائع تاريخية من العصر الراهن، حيث أدرج شخصيات سياسية تتوق إلى السلطة مرتكزة على العنف، فهي شخصيات" انتهازية وصولية تريد السلطة من أجل السلطة وأن تقرر اتخاذ العنف وسيلة للوصول إلى السلطة" (العنزي، 2008، صفحة 60).

ومن بين الشخصيات التي مثلت هذا النموذج، الشخصية المتخيلة الجنرال مالكوم بلير ويظهر ذلك من خلال الحوار الذي جرى بينه وبين آدم:" بيغ بروذر...طاغية صغير، لا يختلف عن الذين سبقوه، وأنت لست أفضل منه، تمجّد زمنا مات. أيّ الحروب خضت لتكون ماريشالا ما عدا حروب الخوف والرمال والعقارب القاتلة التي قتلت المئات في هذا المكان" (الأعرج، 2016، صفحة 58). فليتل بروز خاض حروبا ضارية ضد الضعفاء رغبة منه في الوصول لرتبة الماريشال.

فالدافع الأساسي للحروب في العالم رغم اختلاف الزمان والمكان هو الرغبة في السلطة لا غير. فعلى الرغم مما تدعيه هذه السلطة من حماية حقوق الانسان وتحقيق العدالة الاجتماعية، إلاّ أنّ ما تضمره أخطر مما تظهره "وعندما أغلق العساكر بوابات البوكسات وخرج العابرون جميعا، أطلق التيار الكهربائي في الأسلاك الشائكة. عندما حاول بعضهم أن يهجم بكل قواه على المدخل، التصق بالأسلاك تحت شرارات كهربائية على أكفهم ووجوهم وأجسادهم. تراجع الآخرون تلقائيا إلى الوراء وهم في ذعر حقيقي" (الأعرج، 2016، صفحة 72). وهو

استشراف لوضع يرثى له لأناس جياع، عراة، يستنجدون عطف سلطة أميروبا التي كانت سببا في تشردهم سابقا وهلاكهم مستقبلا.

واستنادا إلى هذا النسق المضمر يكشف لنا واسيني خبايا السلطة بين التاريخ الحقيقي والتاريخ التخييلي، باعتماده آليات السرد من جهة، وحقائق تاريخية بحتة. هو استشرف حال العالم لسنة 2084 وما سيؤول إليه من واقع مزري وأفق مسدود فـ" كل بلدان آرابيا التي كانت قائمة اندثرت نهائيا، حتى بعضها الذي كانت له قيمة بنفطه وماله وتربته، لم يعد موجودا، أو لنقل تمزّق قطعا صغيرة تديرها قبائل ومجموعات مشتركة وأقليات طائفية ولغوية وعرقية؟" (الأعرج، 2016، صفحة 343).

وهنا، يحيلنا هذا النسق المضمر إلى حقيقة مستقبل هذا العربي، الذي سيرقص على أشلاء القتلى، هي رسالة تحذيرية من مستقبل جنائزي قد يعصف بالوطن العربي.

3-2. نسق الهوية المضمر:

تتحدث الرواية عن شعوب ضيعت ذاتها، وفقدت هويتها، بسبب البلادة أولا، والتناحر والعصبية ثانيا. ناسية أو متناسية أنّ " الهوية ليست اختيارا فرديا يتخذه المرء لنفسه ويتسمى به، وإنّما هي لبوس ثقافي يزود الشخصية بتعريف موصوف" (ابراهيم، 2011، صفحة 293). تتشارك فيه الأفراد مجتمعة ومحافظة على ثقافتها. غير أن العربي ضيعها في أول اختبار له مع ذاته ومع الآخر. فقلعة أميروبا طمست هوية آدم، ماضيه حاضره ومستقبله، فلم يبق منه إلا ذاكرة ترفض النسيان، وترفض أن تكون عينة من سكان أرابيا الذين فقدوا كل مؤهلات الحياة الكريمة، واستسلموا للموت القادم من الغربي، إذ يتساءل آدم: "لمن ينتمي الذي أصبح بلا هوية؟ أنا اليوم لا هوية لي؟ سوى أنّي أعرف أنّي عربي بلا أرض محددة ينتظر أن يوضع مثل الهنود الحمر في محتشد عام مساحاته فيه محسوبة" (الأعرج، 2016، صفحة 343). ويضمر هذا السؤال قضية أساسية متمثلة في البحث عن الوطن الضائع، ففقدان الوطن يتبعه فقدان الانتماء والهوية، وقد وجد آدم نفسه دون وطن يرتمي في أحضانه، نتيجة لما آلت إليه آرابيا من تفكك، وتشتت لأهلها هنا وهناك بسبب حروبها الداخلية، فلم يعد يعرف سوى أنه عربي سلبت منه أرضه. إذ يتساءل مرة أخرى:" هل هذا هو شعب آرابيا الذي أنا منهم؟ كيف تم هذا التحول في أقل من قرن؟ المؤكد أن الكثير من هؤلاء البؤساء كان أستاذ أو طبيب أو عامل في مؤسسة، أو مواطن بسيط؟ من كلف نفسه السؤال؟ أية صحراء هذه من مدّ للخير إلى مأوى للموت" (الأعرج، 2016، صفحة 72).

فالرواية تقدّم لنا صورة مرعبة عن عربي المستقبل، الذي خلّف بقايا بشر بلا هوية ولا ذاكرة. وبالمقابل تقدم لنا نموذجا للعربي الأخير؛ الممثل في شخص "آدم غريب" العالم النووي الذي كان يأمل في تحرير العالم من ظلامية الأسلحة النووية، بقنبلته السلمية الردعية." نشأت فكرة قنبلة الجيب من العدم، من فكرة صغيرة، ماذا لو وضع الإنسان قنبلة صغيرة واستعملها عند الضرورات القصوى في مكان محدد، بدل قتل الناس جميعا في مدينة مثل هيروشيما" (الأعرج، 2016، صفحة 70) . هذا الرهان لازم آدم طيلة احتجازه في قلعة أميروبا، لكنّه لم يكن يعلم أنّه بقراره هذا يوقع وثيقة نهاية أرابيا، فـ" البوكيت بومب" لم تكن إلا وهما سلميا يخفي وراءه سلاحا فتاكا

يقضي على البشرية. فاختراع آدم أسهم في زوال آرابيا من الوجود. فلا العربي البليد حافظ على هويته، ولا المفكر حافظ على وجودها.

ونخلص مما سبق إلى أن نسق الهوية المضمر طبعا، كان محركا أساسيا للحدث الروائي، وقد تجسّد ذلك في شخص آدم ذاك العربي الأخير الذي وجد نفسه في دوامة للبحث عن ذاته وعن انتمائه العربي المهدد بالزوال.

وهكذا، يلقي هذا النسق المضمر بضلاله على مسألة الهوية العربية المفقودة بسبب الفساد في أيام عزها وثروتها النفطية، وبسبب الصراعات القبلية والطائفية والدينية، بعدما جف النفط وجف المال، فلم يجد العربي إلا البداوة والرجعية ملاذا له.

ومن جهة أخرى، يطل علينا نسق مضمر يخفي بين طياته الرغبة في التشبث بالأصل رغم قهر الظروف، فـ"آدم" المواطن الأمريكي، مازال وفيا لجذوره العربية،ولم ينس لغته الأصل ففي عزّ القهر والألم نجده يوثّق بها رسائله وذكرياته. ففي ظل هذا الفقدان الهوياتي ظل آدم متشبتا بلغته ومن تم هويته، مادامت اللغة مقوما أساسيا من مقومات الهوية الجماعية.

3-3. نسق الإرهاب المضمر:

تتحدد معالم هذا النسق المضمر من خلال الحديث عن الممنوع والمقموع الذي يمثل "الإرهاب"، إذ تتساءل الرواية عن طبيعته وأسباب وجوده " من خلقه؟ من موله؟ من دربه؟ من وجهه لقتل العلماء وتحطيم أجمل ما شيدته الحضارة الإنسانية على أرضه، من استفاد منه في النهاية" (الأعرج، 2016، صفحة 270).

وتتشكل المعالم الأولى لهذا الإرهاب من خلال تلك الشعارات النازية، التي كتبت على بوابات قلعة أميروبا "العربي الجيد هو العربي الميت" (الأعرج، 2016، صفحة 48) فـ" العربي لا يصبح جيدا إلاّ بموته" (الأعرج، 2016، صفحة 22)، وغيرها من الشعارات المتطرفة. وبهذا تقدم لنا الرواية هذا العربي، على أنه إرهابي بالدرجة الأولى في المخيال الغربي "فكل عربي إرهابي حتى يثبت العكس" (الأعرج، 2016، صفحة 33)، وهذا ما تؤكده معاملة "آدم" كسجين، فلم يحترم كعالم لأنه من أصول عربية، فقد يكون حاملا للجينات الإرهابية. وهو التصنيف الذي لم يقبله اللاست أرابيك قائلا:" لا طلب لي إلا الاعتراف بوضعي كعالم أمريكي قادم من أرابيا مثل اللاتينو والأفارقة والأوروبيين الذين يشكلون المجتمع الأمريكي، لست سارقا أو إرهابيا أو قاتلا" (الأعرج، 2016، صفحة 96) .لكنه لم يكن يسمع إلا جوابا واحدا" العالم لا هوية ولا وطن له، فهو ملك للبشرية جمعاء" (الأعرج، 2016، صفحة 96) . فالنسق المضمر هنا، يحيل إلى هوية "آدم" الجديدة، ومنه هوية كل آرابي بوصفه إرهابيا، فهذه الهوية الإرهابية لم تكن إلا نتيجة لما يصنعه العربي بنفسه وبغيره.

وإضافة إلى إرهاب أميروبا، نجد الإرهاب التقليدي الممثل في "التنظيم" بقيادة الكوربو سيف، ومثّل لذلك باختطاف آدم من مطار رواسي بباريس، فيقول: " لست إرهابيا ولن أكونه أبدا. أصلا من كان يريد اختطافي هو التنظيم الذي جعل من الإسلام واجهته لقتل الأبرياء. ضمّ في صفوفه كل القتلة وشذاذ الآفاق الذين لا هوية لهم

إلاّ التباهي بالدوراد والموت" (الأعرج، 2016، صفحة 100) . ويقصد به تنظيم "داعش" إلاّ أنّه لم يصرح بذلك، ليؤكد أن التنظيمات الإرهابية لن تزول. وأنّ الصراع بين أميروبا والتنظيم سيظل قائما مهما طال الزمن.

3-4. نسق الآخرية المضمر:

يصفعنا نسق الآخرية في مستهل الرواية من خلال مقولة باتريك سرينغ "العربي الجيد الوحيد، هو العربي الميت" (الأعرج، 2016، صفحة 5). وكان لهذه المقولة السلطوية وقع شديد التأثير في الرواية سيما على العربي الأخير "آدم"، لكن هذا القمع لم يسر فقط على العربي، بل امتد إلى من مدّ يد العون له. كما حدث مع جوليان اسونج الذي اغتيل في ظروف غامضة لأنّه كشف الوثائق المتعلقة بشعار القلعة.

فسياسة الآخر الغربي هي التي وضعت العربي في موضع الملغي، " فالعربي الجيد في نظر الآخر هو العربي الذي يلغي نفسه ولا يفكر" (زهية، 2017، صفحة 60). وهنا تبرز هذه العلاقة المشروخة بين الذات العربية والآخر. بين طرف يملك السلطة وطرف يعيش تحت وطأتها، فإذا كان "وجودي بالنسبة لي هو تشكل الذات في رأي الآخر الذي يجسدها" (عمارة، 2017، صفحة 60)، فكيف هي صورتي -أنا العربي- في عيون الأميروبي والأزاري في ظل انعدام تكافؤ القوى، حيث يقول الكولونيل صامويل لوكوك لإيفا واصفا حال الآرابيين: " مساكين حقيقة تأكلهم الصحاري والبرد، ... يتقاتلون على لا شيء، ولكني مستغرب كيف لا يأكلون بعضهم البعض، ويفضلون الموت والتحول إلى غبار على المقابر...مع ذلك الجائع لا يؤتمن" (الأعرج، 2016، صفحة 70).

يشير هذا النسق المضمر إلى أسباب انقراض العرب وزوالهم، فهل بالإمكان ترميم شرخ الذات العربية، وتشخيص الوهن الذي ينخرها قبل فوات الأوان.

وغير بعيد عن ذلك نصدم بنسق مضمر آخر تمثل في انقسامية الذات نفسها، اذ نصطدم بالصوت الداخلي الذي تمثل في الذئب رماد، ولم يحضر هذا الصوت الداخلي إلا للتخفيف من رعب المستقبل، الذئب رماد الذي يتراءى عبر النداءات الداخلية التي تشارك "آدم" المرارة والحزن وتعطيه فرصة للتنفيس عن آلامه" فجأة ودون سابق إنذار، وصله نداء داخلي يأتي من بعيد، عواء الذئب رماد الذي لا يعرف أسكن القفر وحلّ به يوم نزل هو فيه، أم أنّه ينام داخله" (الأعرج، 2016، صفحة 82) ، رماد كان الصوت الداخلي الذي لا يبتعد عن ذات آدم، بل كان أقوى من صوت "البوكيت بومب"، لأنّه صوت الرغبة الداخلية في البقاء، وتأكّد ذلك بإبقاء آدم حيّا رغم وابل الرصاص "لابد أن نحمله الآن، إنّه حي لكنّه ينزف وبدأت أعضاؤه تتجمد بسرعة، لا وقت لدينا، قبل أن تكبر العاصفة ويدركنا غبار الانفجار الثقيل" (الأعرج، 2016، صفحة 464) ، هو صوت الأمل الذي تحرّر في مواجهة اشعاع البوكيت بومب، ورصاصات الاجرام.

وتكشف الرواية عن لحظات الانفصام والتمزق بين الذات والآخر بعد أصبح " الجسد الآرابي كله حطبا لحروب لا علاقة له بها،...انقرضت أو في طريقها إلى ذلك" (الأعرج، 2016، الصفحات 271-272)، ويشير النسق المضمر هنا إلى أنّ فشل العربي يرجع إلى الخطاب التآمري الذي يسيطر على الفكر العربي،"ألم أقل لك...أنت المولع بنظرية المؤامرات" (الأعرج، 2016، صفحة 89). فالرواية تمنح القوة الفاعلة للآخر الغربي، كما هو الواقع

تماما، فالإرهابي صنعه الغربي، والعالم صنعه الغربي، وكلاهما يستحق الموت والفناء. ففي النهاية العربي الجيد هو العربي الميت.

الخاتمة:

نلمس من خلال مجاورتنا للأنساق المضمرة في الرواية، أن الروائي يستشرف نهاية مرعبة للمنطقة الآرابية من خلال نزاعات طائفية وحروب عبثية وصراعات قبلية جعلتها مجرد بقايا أنظمة، بقايا بشر فاقدة لهويتها اللغوية والدينية والثقافية وحتى الإنسانية، فـ"هؤلاء الذين تراهم في تيه الرمال، كانوا بؤساء حتى في عزّ تدفق النفط والمال والبورصات التي صنعت أوراقا وأموالا ولم تصنع وطنا واحدا جديرا بأن يحترم" (الأعرج، 2016، صفحة 89)، فأضحت شعوبهم ترزح تحت رحمة الجوع والإرهاب في الصحراء، لكن "أية صحراء هذه، من مد للخير إلى مأوى للموت" (الأعرج، 2016، صفحة 72) .

ولكنّ الرواية رغم أنها استشراف للخراب، ونذير بالتشتت الهوياتي، إلا أنها تضمر بين طيات أنساقها رؤيا إيجابية تحاول إيقاظ الضمير العربي للنظر في عواقب أفعاله إذ تذكرهم بأخطائهم "عندما قام العرب بثورتهم كبقية الشعوب قتلوا أنفسهم أولا، ثم أكلوا رؤوس بلدانهم وبعدها خلقوا فراغا ظنوه الديمقراطية، ويوم استيقظوا وجدوا أنفسهم مجموعات يقتلها العطش والصحاري والثعابين" (الأعرج، 2016، صفحة 343)، وعليه هي تدق ناقوس الخطر لمن أراد أن يعتبر حتى يحافظ هذا العربي ولو كان العربي الأخير على هوية عربية واحدة لا تقبل الانقسام ولا الزّوال.

وقد نختصر النتائج المتوصل اليها خلال هذا البحث فيما يلي:

- قدّم واسيني الأعرج منجزا روائيا اتكأ فيه على المادة التاريخية، حيث تعالق التاريخ مع الفضاء المتخيل.
- أثار الروائي قضية الهوية، الإرهاب، استبداد السلطة، والآخرية، واستشرف مصيرا سوداويا للعالم العربي استنادا إلى التاريخ المعاصر.
- جاءت الأنساق المضمرة متخفية وراء الحدث التاريخي تارة، والحدث التخييلي تارة أخرى؛ وكانت منبرا لتمرير رؤى ومواقف الكاتب من جهة، ومبتغاها لذاتها من جهة أخرى.

وعليه، سواء عمد الكاتب إلى إضمار هذه الأنساق أو إظهارها، كان حضورها جليّا على طول النص الروائي. إذ لا نكاد نبتعد عن نسق مضمر حتى نلتقي بآخر. ومن ثم كانت الأنساق المضمرة على اختلاف أنواعها محركا أساسيا لبناء هذا المنجز الروائي.

قائمة المراجع:

1- إسماعيل محمد هاشم محمد، الأنساق المضمرة وتجلياتها في النص المسرحي العراقي المعاصر، مجلة ذي قار، كلية الاداب- جامعة ذي قار، العراق، مج 34، ع1، جانفي 2021.

2- آمنة بلعلى، المتخيل في الرواية الجزائرية، دار الأمل، تيزي وزو، الجزائر، د.ط، 2006.

3- بن زهية عبد الله، الهوية والآخر، قراءة في خطاب المثاقفة والايديولوجيا- حكاية العربي الأخير2084 أنموذجا، مجلة آفاق علمية، ع9، 2017.

4- روزنتال. م. يودين. ي، الموسوعة الفلسفية، ترجمة: سمير كرم، دار الطليعة. ط1، بيروت.

5- سعاد عبد الله العنزي، صورة العنف السياسي في الرواية الجزائرية المعاصرة (دراسة نقدية)، دار الفراشة، الكويت.

6- عبد العزيز حمودة، المرايا المحدبة- من البنيوية إلى التفكيك، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون، ع252، الكويت.

7- عبد الله إبراهيم، التخيل والتاريخي، السرد، والامبراطورية، والتجربة الاستعمارية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان، ط1، 2011.

8- عبد الله الغذامي- اصطيف عبد النبي، نقد الثقافي أم نقد أدبي، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، ط1،2004.

9- عبد الله الغذامي، النقد الثقافي- قراءة في الأنساق الثقافية العربية، لبنان- بيروت، المغرب- الدار البيضاء، المركز الثقافي العربي، ط5، 2012.

10- عبود أوريدة، استدعاء الشخصيات التاريخية في رواية "فاجعة الليلة السابعة بعد الألف- رمل الماية- لواسيني الأعرج، مجلة الخطاب، ع24، 01جانفي2017.

11- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية، مكتبة لبنان، بيروت، لبنان، ط1، 2002.

12- الناصر عمارة، اللغة والتأويل - مقاربات في الهيرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الاسلامي، منشورات الاختلاف، دار الفارابي العربية للعلوم، الجزائر- بيروت، ط1.

13- واسيني الاعرج، 2084 حكاية العربي الأخير، دار الأداب، بيروت، لبنان، ط1.